علمتني مهنتي

بقلم الدكتور جورج حنا

•

لا أظن ان احداً من الناس له خبرة بالمجتمع الذي يعيش فيه اكثر من الطبيب . فهو في مخالطته الكبار والصغار ، في دخوله الى قصور الاغنياء واكواخ الفقراء ، في وقوفه على شكاوى الناس واسرارهم ، في الثقة التي يضعها الناس به ، اقرب من اي كان الى معرفة حاجات الشعب واحوال المجتمع ، في حسناته وسيئاته .

يخرج الطبيب من الجامعة ، وقد كادت تذوب تلافيف دماغه في الدرس ، واستظهار اسماء العقاقير ، وجرعاتها المطلسمة ، وهو منهوك الاعصاب ، من سويعات الامتحانات الرهيبة ، وغطرسة الفحّاص والمحكمين ، الذين يغرهم ان لقرارهم قوة الابرام والنقض ، بمقدرات المتقدمين الى محكمتهم ، الراجفين امام جبروتهم ، حتى اذا خرج الطالب من هذه الدعكة ، قابضاً بيديه على « الفرمان » المرتقب ، افتر ثغره عن بسمة الظفر ، وكان لقاءٌ بينه وبين الاحلام ، تروح به وتجيء ، في عالمٍ من الأمل ، لا يدري اين يستقر وكيف يستقرّ .

وفي غمرة من الغبطة والاعتزاز بما حصل عليه ، ومن القلق على مصيرٍ مخبأ له وراء الايام ، تمرّ عليه الاسابيع والشهور ، يعدّها ويعدّدها ، وهو قابع في زاوية عيادته ، محاطاً باساطين تعرّف اليهم إبّان دراسته ، يجاوره « باستور » شاخصاً الى مجهر ، دفع الطبيب الجديد ثمنه الف ليرة من مال ابيه ، ويتباحث مع « لستر » و « بافلوف » و « كوخ » و « اوسلر » و « فيدال » بآراءٍ مدرجة في الكتب المرصوفة على أدراج مكتبته ، والتي دفع ثمنها الف ليرة اخرى من توفيرات امّه ، ويقلّب في آلات لمّاعة ، رهنَ بيت العائلة لشرائها ، ويدخن اللفافة تلو اللفافة ، بانتظار من يقرع عليه الباب ، ويكلفه بمعاينة ، تسلّيه في عزلته ، وتفسح له مجالاً لاخراج ما جمّعه في رأسه من المعارف . فاذا بالشمس تشرق وتغيب ، ثم تشرق ثانية وتغيب ، ثم تشرق خمسين مرة وتغيب ، وهو يشاهد شروقها وغروبها ، فلا الشروق يجلب له الزبائن ، ولا الغروب يفسح الهمّ عن صدره . واذا بصاحبنا الطبيب الجديد ، يشخص الى « الفرمان » المعلّق على الجدار ، ويسائل نفسه ، فيما اذا كان الفرمان هذا ، ما اخرجه سالماً من دعكة الجامعة وامتحاناتها ، الا ليلقيه مهشماً في دعكة الحياة .

ويخطىء من يعتقد ان الطبيب عند تسلمه « الفرمان » ، يصبح في وضع يحسد عليه . ان الفرمان هذا هو مجرّد شهادة ، بان حامله اجتاز الامتحانات بعلم الطب ، تخوله ممارسة الطبابة ، التي تتطلب معرفة اشياء لم تعلمه اياها المدرسة . فالطب شيء والطبابة هي هذا الشيء ، ويزاد عليه اشياء .

الطب علم من العلوم الطبيعية البيولوجية المادية ، ونظرياته مستمدّة من سنن الطبيعة والتفاعل البيولوجي الحياتي ، ولا مجال فيه للنظريات الفلسفية ، غير المستندة الى هذا التفاعل . اما الطبابة ، فهي فضلًا عن ذلك ، فن وحكمة ، ومراس وفلسفة نفسية ، وادراك عقلية المرضى وامزجتهم ، والاخذ باعتبارات البيئة والعادة ، والحالات المعيشية والاجتماعية . الطب علم والطبابة رسالة اكثر منها مهنة ، على الرغم من تسميتها كذلك .

بالطبع في النظام الحرّ ، كما يعرفه هذا النظام ، يتوجب على الطبيب ان يضمن لنفسه ولعائلته العيش . ومن حقه ايضاً ان يطمح الى العيش ، على مستوى يليق بمركزه العلمي والاجتماعي ، كما انه يتوجب على البيئة التي يعيش فيها ان تكافئه على خدماته لها ، ما دام النظام الحر يضع هذه المكافأة على عاتق من يفيدون من هذه الخدمات . فهو مضطر اذن الى ان يستوفي اجراً عن هذه الخدمات . وليس من الانصاف حرمانه منها ، بحجة انسانية الطبابة ، لا سيما عندما يتذرع بهذه الحجة ، من هم ابعد الناس عنها ، والذين جمعوا الاموال الطائلة عن غير طريقها المشروع . فأذا كان المفروض في الطبيب ألا يتاجر بمهنته ، ومثل هذا الطبيب اقل من القليل ، فالمفروض ايضاً ، ألا يتاجر المرضى الميسورون بالطبيب والانسانية معاً ، الى ان تستقرّ الانسانية على مفهومها الصحيح ، ولا يعود للدجل دخل في تفسيرها .

في السنة الاولى لمزاولتي الطبابة ، وكنت لم أزل بعد في ضيعتي ، دعيت يوماً لعيادة مريضة هي زوجة احد اغنياء الضيعة اشتهر بالبخل . ولما كان مضى علي اسبوع كامل لم اقبض فيه قرشاً واحداً ، اغتبطت بتلك الزيارة ، التي ستدخل الى جيبي اربعة « بشالك » وهي الاجرة المألوفة في ذلك الحين . كان

الفصل صيفاً ، وبيت المريضة في الطرف الاعلى من البلدة ، وبيتي في الطرف الاسفل . وكان الوقت ظهراً ، وعليّ ان اذهب ماشياً ، حاملاً حقيبتي بيدي . الزيارة لمريضة غنيّة ، وانا بحاجة الى البشالك الاربعة ، وبحاجة الى ان يعرفني ويستدعيني غير الفقراء . فما ان دخلت غرفة المريضة ، حتى بادرت الى فحصها فحصاً دقيقاً ، وبقيت اربعين دقيقة ، اقلبها ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، واطوّف سماعتي على صدرها ، وفوق قلبها ، حتى اذا انتهيت من الفحص ، كان العرق يتصبب من جبيني ، ويختلط بعرق جسمي ، الذي انهكه المشي صعداً في قيظ الظهيرة . ثم وصفت لها العلاج ، وزودت امها بالتعليمات الضرورية ، واستأذنت بالرحيل متمنياً للمريضة الشفاء العاجل .

وفيما كنت اهم بالخروج من بوابة البيت ، تقدم مني الزوج ، ووضع في جيبي ، دون أي سؤال ، قطعتين من النقود ، أدركت من طقطقتها ، انها بشلكان . وعندما اعترضت على هذا الحسم غير المنتظر ، من رجل دخله اليومي يفوق دخلي السنوي ، وكنت باعتراضي على اكثر ما يكون من اللطف ، بادرني بموعظة مدارها ان الطب عمل انساني ، ولا يحسن بالطبيب ان يساوم باجرته ، بل يقبل ما تسمح به نفس المعطي . بسملت وحوقلت ، وسكتّ على مضض ، إذ اني لااريد ان اخسر زبوناً غنياً ، ولو كان بخيلاً ، قد يؤثر كلامه عني في أوساط القرية .

وفي يوم آخر ، دلفت الى عيادتي امرأة ارملة في حوالى الاربعين من العمر ، وطلبت أن اعاينها معاينة دقيقة . ولم تنكر عليّ عدم ايمانها بالطب والاطباء ، لأنها لم تجد منهم بعد من يشفيها . ولكنها رغبت بان اعاينها من قبيل « ضرب الطينة بالحيط » . لم اهمل طريقة من طرق الفحص والتدقيق ، من قمة رأسها إلى اخمص قدميها . وعندما رجعت الى كرسيّ ، وعادت هي إلى مقعدها ، دون ان يفوتها ان تمر أمام المرآة المعلقة على الحائط ، بادرتني بالسؤال عما اذا كنت قد اكتشفت العلة . غير اني بعد الفحص الدقيق لم أجد في هذه المريضة مرضاً ، وصرّحت لها بان العلة التي تشكو منها غير موجودة ، وانها فريسة الخوف والوهم ، وان احسن دواء لها هو اللادواء ، وانها يجب ان تعود الى معيشتها العادية ، وتعمل على الترويح عن نفسها بالرياضة والهواء الطلق وما أشبه . فارتسمت على وجهها أثناء حديثي ، بسمة تنم عن شيء من السخرية ، معناها اني لا افهم كثيراً ، كغيري من الاطباء . وعندما علمت اني لن اكتب لها « روشتة » لم ترَ موجباً لدفع بدل المعاينة ، لأن المعاينة التي لا تسفر عن كتابة « روشتة » لا تستحق الاجرة . هكذا اجابتني عندما ذكرتها بالامر . البشلكان في رأيها ، هما ثمن « الروشتة » وليسا تعويضاً عن الساعة التي قضيتها بالحديث والمعاينة .

غلب عليّ اليأس ، وانا قابع في غرفتي ، بعد مغادرة المرأة الواهمة عيادتي . وزادت الوحشة في ضغط هذا الشعور على افكاري . زوج المريضة الاولى ، يقول إن تعويض الطبيب عطاء ، على قدر ما تسمح به نفس المعطي ، والمريضة الثانية ، ترى ان اجرة الطبيب لا تستحق الاداء ، إلا اذا كتب وصفة على ورقة . الأول يلقي عليّ دروساً في انسانية الطب ، والثانية تقتصّ مني لأني اخلصت لها وكنت اميناً لمهنتي . هنا بدأ يساورني شعور اليأس ممزوجاً بشعور الذلّ . أهكذا يطلّ علي العهد الذي نشدته ، وقضيت زهرة عمري بالسعي لبلوغه ؟ أتكون انسانية الطبابة ، سمّها رسالة او سمها مهنة ، رهناً بتفسير « الانسانيين المعلومين » ويضطر صاحبها الى مسايرتهم ومداهنتهم ، ولو كانت مسايرته ومداهنته من نوع الشعوذة ؟

إن معركة الطبيب مع الحياة ، معركة شاقة وقاسية . في كل مرحلة من مراحلها يجد نفسه امام المصاعب والاخطار والمشقات . في المرحلة الأولى ، كان همّه الدفاع عن نفسه ، وضمان بقائه وأسباب معيشته . يخوض المعركة ضعيفاً ، فيغلّب ويذلّ ، ويكبو الكبوة تلو الكبوة ، ويراوده شعور النقص ، حتى اذا جاءت المرحلة الثانية ، ولاحت له تباشير الغلبة ، واطمأن على نفسه ، انتفض انتفاضة الجبار ، واذا به يواجه عدوّه الشرير ، بل أعداءه وحلفاء اعدائه ، امراضاً وجراثيم ، ومجهّلين ومجوّعين واذا به وقد نهض من دعكة المرحلة الأولى ، رافعاً علم الانسانية غير الكاذبة ، يتطلع الى المجتمع فيجده يغصّ بجماعات البسطاء والفقراء والمهملين ، هذه الجماعات الكاسحة الساحقة ، فتثور ثائرته ، ولا بدّ للطبيب ان يثور ، واذا بالنقمة تنصب عليه من جماعة شريرة حاقدة ، وتتهمه بالجحود وهي الجاحدة ، وتقول فيه ما لم يقله مالك بالخمر ، وهي الغارقة في اوحال الرجس والاقذار .

عفوَ قرائي إذا وجدوا في قولي هذا تمجيداً للطبابة والأطباء ، ولا يجيئني احدهم بسرد حوادث جرت على يد نفر من الاطباء ، لا تشرفهم ولا تشرف الطبابة والطب . فمن ينظر الى الطبابة من خلال طبيب ، يكفر بالرسالة ويتنكر لسمو انسانيتها ، شأنه

شأن من ينظر الى أية رسالة سامية ، سواء كانت دينيـــة ام اجتماعيـــة ام تحررية ، من خلال تصرفات نفر من عمالها العابثين . الرسالات السامية ، والطبابة واحدة منها، لا تؤذيها في جوهرها، بؤرٌ « عفنة » تحوم حولها اقليـــة كالحة ، تأبى الخروج من العفن . هذه الأقلية لا بد من القضاء عليها عاجلًا أم آجلًا .

منذ العهد الابوقراطي الى الآن، لم يقوَ شذوذ بعض الاطباء على لطخ الطبابة او تلويثها او تقبيحها . حتى الطبيب الذي يمتهن الطب لكسب العيش او الاثراء ، حتى الطبيب الذي لا يعير اهتماماً لسموّ الرسالة ، ليس له مفرّ من اسداء الخدمة للمجتمع، ولو كانت غايته منها الكسب والاثراء والدعاية . تصوّر ايها القارىء كيف كانت حالة هذا البلد ، الذي ندّعي بانه بـــلد الاشعاع ، لو تركت مبادرة الأعمال الصحية والاجتماعية فيه للقائمين على امره ، ولو لم يقم من ابنائه افرادٌ مغامرون ، مهما كانت غايتهم من المغامرة ، ويأخذوا بايديهم ما امتنعت ، وما زالت تمتنع عن اخذه السلطات المسؤولة . وليس ادل على ذلك من هذا العدد الضخم من المؤسسات الطبية الخاصّة ، ومن هذا العدد الأكثر ضخامة من جمعيات البر والاحسان ، التي يطوف اعضاؤها على البيوت ، والمخازن ، والمعابد ، والمقاهي ، وأندية القمار لجمع القرش ، لكي يعالجوا مريضاً ، او يطعموا فقيراً ، او يؤوُوا يتيماً . في قلب لبنان هذا ، كم ام تموت اثناء المخاض كل سنة ، لأنه ليس في بلد الاشعاع سلطة تهتم بها . وكم طفـل يموت قبل ان يفتح عينيه للنور ، واذا ما مات يعيش مريضاً او كسيحاً او مخبولاً ، لأن في هذا البلد بالذات ، لا قيمة للطفل عند المسؤولين . وكم من مريض نهشه المرض ، دون ان يجـد من يعتني به ، وكم من مسلول او موبوء ، ترك على قارعـــة الطريق ، لأن المستشفيات الرسمية ، في قلتها وضياع المسؤولية فيها ، لا تقبل مريضاً ، إلا اذا كان يحمل سمة مرور مهورة من وزير او نائب او متنفذ ، ولأن المستشفيات الخاصة ، لا هي قادرة على اخذه بالمجان ، ولا هو قادر على دفع تعويض لها . وكم من وباء انتشر في هذا البلد ، على الرغم من طبيعته الخلابة، وهوائه العليل ، وشمسه اليانعة ، لأن المالكين سعداءَ فيـــه ، يكفرون بطبيعته وهوائه وشمسه ، فلا يقدرون هـذه المزايا ، ولا يأتون عملا للافادة منها .

هذه هي معركة الطبابة مع الحياة ، بل معركتهـــا ضد العابثين بقيم الحياة . باستطاعـــة الطبيب ان يشفي مريضاً او اكثر من مريض ، وباستطاعته ان ينقذ جريحاً او اكثر من جريح ، ولكن ليس باستطاعة اطباء الدنيا كلهم ، ان يقطعوا دابر الأمراض والأوبئة ، وينقذوا حياة المصابـــين والمجاريح ، ما دام في الدنيا جماعات جشعة قهارة ، لا يهنأ لها العيش الا على بؤس الجماعات الساحقة ، ولا يطيب لها الرقص الا على جثث القتلى وقبور المشردين .

وطالما طلـــع علينا بعضهم ، بمشاريع للضمان الطبي الاجتماعي ، متجاهلين ان الضمان الطبي والاجتماعي لا يكفل سيره السير الحسن ، الا نظام قائم على العدل الاجتماعي ، وحق الانسان في ان لا يكون مستعبداً في عمله وطريقـــة معيشته .

ان الضمان الطبي في بلدٍ ليس فيه ضمان اجـــتماعي حقيقي وعلمي ، بل كل ميزته انه يتيح للمريض فرصة المعالجة بالمجان ، دون ان يعمل شيئاً لكي لا يمرض الأصحاء ، والضمان الاجتماعي الذي يقتصر على ضمان حق العامل في التعويض والبطالة ، دون ان يضمن عدم وجود بطالة وعدم قيام حاجة ، لا يكونان ضماناً طبياً او ضماناً اجتماعياً بالمعنى الصحيح .

قلت واعيد ان الطبابة رسالة اكثر مما هي مهنة . والطبيب الذي يحمل رسالته بشرف وينهض بواجباتها ومسؤولياتها ،ولا يحبس نفسه في قوقعةٍ لا يخرج منها ، ولا يهمل مشاكل المجتمع الذي يعيش فيه ، والوطن الذي يستظلّ علمه ، هـذا الطبيب لا يهمه ما يقوله عنه زيد او ما يتقوّله عمرو . ان رسالة الطبيب اوسع كثيراً من إجراء عملية جراحية ، او معاينة مريض ، او وصف علاج . انها رسالة علمية طبية اجتماعيـة ، وسياسية ايضاً بالمعنى الواسع للسياسة .

لا يتسع المجال في هذه الصفحات لكتابـة كل ما علّمتني مهنتي طوال ثلاثين عاماً . فهذا يحتاج الى كتاب ضخم قد اعنى بوضعه اذا فسح لي العمر مجالاً لذلك ، فأؤدي الى مجتمعي واجباً تفرضه الرسالة التي حمّلتها ، او المهنة التي تعاطيتهـــا ، وعندئذ اطمئن الى اني قمت بقسط متواضع في خدمـة وطني وامتي .

جورج حنا